عباد الرحمن

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٨/٨/٢٢م

وصف الله سبحانه وتعالى المتحققين بالعبودية له، والذين قبل أوصافهم واعتبر نعوتهم، في سورة من سور القرآن سمّاها سورة الفرقان، والفرقان: النورُ الذي يفرِّق العبد به بين الحقّ والباطل، فمن أوتي هذا النور فأبصر الحقّ وعرف الباطل، فتحقّق بالعبودية لله سبحانه وتعالى في اتّباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، واستشعر في قلبه عظمة الله تبارك وتعالى فكان عبدًا له بصدق، يكون عندها من عباده.

ففي سورة الفرقان آيات نقرؤها كثيرًا لكنها حين تُكرَّر على قلوبنا نأخذ منها منهاجًا نقتدي به ونتَّبعه ونتأسى به، وهي قوله تعالى: { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا، وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا } [الفرقان: ٦٣-٧٦].

- فقوله: { أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ } أي: يجزون الجنة.
- { بِمَا صَبَرُوا } أي: على ما تقدَّم من الأوصاف.
- { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً } من الله سبحانه وتعالى.
- { وَسَلامًا } فيه كلُّ الأمان مِنْ سخط الله تبارك وتعالى أو عتابه أو عقابه.

إذًا: فما أعظمها من أوصافٍ في آيات بدأها ربُّنا تبارك وتعالى بوصف هؤلاء بأنهم عباد الرحمن، وختم النص بأنهم يثابون بالجنة، ويُلقَّون فيها تحية من الله تبارك وتعالى، وسلامًا فيه كلُّ الأمان!

فما أعظمها إذًا من أوصاف مبتداها عبوديةٌ للرحمن، ومنتهاها تحيّةٌ من الرحمن! مبتداها استشعارٌ للتكليف الذي كلفهم به الرحمن، ومنتهاها تنعُّمٌ بالتشريف الذي حباهم به وأكرمهم بنعمائه الرحمن!

والذي يتأمل هذه الأوصاف يرى أوصافًا تُقدِّم للمسلم شمولية منهج، فهي تتحدث عن العبادة، وعن المعاملة والأسرة والأخلاق والاستقامة...

وليت أصحاب التربية يتنبهون إلى ما دلَّهم ربُّنا عليه في هذه الآيات، لأنها تقدِّم للإنسانية ما تحتاج إليه، فهي تقدم العقيدةَ السليمة، والعبادةَ التي يتواصل فيها باطن الإنسان مع ربِّه، والمعاملةَ النقية التي تحمِل في مضمونها التوازن والاعتدال، ولا يشوبها غش ولا ميل ولا انحراف ولا شهادة زور... وفيها وضوحُ المقصد، والطهارةُ من المحرمات والفواحش التي يتلطخ فيها أهل المنكرات، والتواصلُ الخلقي مع المُخالف، والترفُّعُ عن إيذاء الناس.

إذًا: هي أوصاف حينما يعي معناها المسلمُ وينشِئ من هذا الوعي منهج تربية، فإنه يبدأ بتربية الجيل في مبتدى نشئه، ثم يتابعه وهو يعتني بالشباب وما يحتاجه معشرُ الشباب، ثم يتابع مستصحبًا إيَّاها حتى منتهى حياة الإنسان، فتظهر من خلالها شخصية الإنسان المسلم، وهويته الواضحة...

وحينما بدأ في هذه الآيات بالأخلاق فإنه بدأ بالنتيجة، وهذا أمر معتادٌ يَعهده من يقرأ القرآن، فإن القرآن قد نوَّع أساليب الخطاب، فتارة يبدأ بالمقدمات ثم ينتهي بالنتائج، وأحيانًا يبدأ بالنتائج ويعرج على المقدمات، لكن الذي يقرأ القرآن بتدبُّر يأخذ من الآيات مضمونها ثم ينطلق من هذا المضمون إلى تطبيقات عملية تربوية.

١- { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا } فمن كان مستشعرًا أنه عبد للرحمن لا يكون في وصفه الكِبرُ أبدًا، فالتكبر للجبارين والطغاة ولأصحاب النفوس والغائبين عن وصفهم الاضطراري الذي هو العبودية.

ألم يكن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو خليفة المسلمين يحمل الطحين على ظهره إلى العجوز التي تتضور جوعًا، ويقول خادمه: ألا أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فيجيبه: هل تحمل عني يوم القيامة أوزاري؟

إنه يتناسب مع وصفه عبدًا للرحمن، فكيف يكون عبدًا للرحمن مستشعرًا عظمة الرحمن ثم يعتري قلبَه بعد ذلك تفاخرٌ أو خُيَلاء؟ أم كيف يعتري قلبه عُجبٌ أو فخر؟

شتان شتان، فالبون كبير بين عُبَّاد النفوس الذي يتفاخرون بالسجايا والمزايا، وعبَاد الرحمن الذين سجدوا لله سبحانه وتعالى وعلموا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَّ القرى فاتحًا، فدخلها ساجدًا لأنه عبد من عباد الرحمن، ولأنه استشعر أن هذا الفتح كان نعمة من الله.

وهكذا تختلف القراءة المادية للحدث عن القراءة الإيمانية، فالقراءة المادية تصدر فخرًا بالسجايا والمزايا، أما القراءة التي تنبعث من العبودية فإنها تقرأ النعمة من خلال قوله تعالى: { وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } [النساء: ١١٣]

{ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا } فانتفى من قلوبهم بسبب ذلك الوصف أن يكون فيها كبر أو عجب أو خيلاء لأنهم تحققوا بالعبودية.

٢- { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا } وهكذا يكون المؤمن قويًّا في باطنه يَصرعُ نفسه ولا تصرعه نفسُه.

وسيدنا عليٌّ كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنه كان في الحرب، فلما صرع خصمَه بصق ذلك الخصم في وجه الإمام كرم الله وجهه، والإمام يمسك السيف ويريد أن يقتله، فلما بصق ذلك الكافر في وجهه قام عنه الإمام وتركه.

يا سبحان الله! ظفرتَ به وهو كافرٌ محارِبٌ لله عدوٌّ له، فلما زاد على عدوانه وبغيه وطغيانه وأنت تُمسك السيف بيدك يا أمير المؤمنين ثم يبصق هذا الوغد في وجهك كرم الله وجهك، تتركه!

نعم، فليس من ينتصر لله كمن ينتصر لنفسه، وليس صاحب المبدأ الذي حمل رسالة المبدأ كالذي بحث عن نصرة نفسه.

لقد تركه وقال: خشيت أن يختلط الأمر فيكون قتلي له انتصارًا لنفسي.

متى نرتقي يا شباب إلى معاملة الله، بأن نعامله فلا تتأثر نفوسنا بإساءة المسيئين، إنما نبقى منضبطين بضوابط الفقه، وبضوابط الشريعة والإسلام، ونتنـــزه عن أن نفعل شيئًا نُصرةً لنفوسنا؟

وكم أساء المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، حتى أنهم ألقَوا سلاء الجزور عليه صلى الله عليه وسلم وهو ساجد في ساحة الحرم عند بيت الله العتيق، إنهم يحملون سلاء الجزور (أي بقايا الناقة الذبيحة) ويلقونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد.

وماذا فعل رسول الله، وهو الذي كان بإشارة واحدة يستطيع أن يسحقهم، ويستطيع أن يسخِّر الشباب في ثورة لا تترك أمامها أخضرَ ولا يابسًا؟ لكنه عبد لله.

ليت شعري إذ جاء عقبة أشقى الـ ـقوم يسعى وفي يديه سَلاءُ
بخبيث أتى خبيث وهل يأ م تي بغير الخبائث الخبثاءُ
فرماه حين السجود عليه وانثنى منه تضحك الأشقياءُ
فأطال السجود حتى أتته فأزالته بنته الزهراءُ

ليت شـــــعري إذ ذاك ما منـــع الأر م ض من الخســـف أو تخِـــرَّ الســـماءُ
قومُ نـــــوحٍ لم يفعلـــــوا مثل هذا ولقد أغـــــــرق البـــــــريةَ مـــاءُ
بيد أن الغـــريم كـــان حليـــــــمًا وكريمـــًا فأُجـــــِّل الاقتـــضـــــاءُ

نعم، { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } فنحن عباد ربِّنا السلام، ولا نحمل إلى العالم إلاَّ السلام.

نحن الذين لا نوصف بالعبودية إلا لله، ولا يكون في سلوكنا ردود الأفعال، ونعتـــزُّ بالله في ساحة الحرب، وفيما عداها فنحن أذلة على المؤمنين ونطمع في هداية الكافرين.

{ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } ولا يقدر على هذا إلاَّ من تحقق بالعبودية لله، ألم يقل ربُّنا: { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } [البقرة: ٨٣] وما قال: للمؤمنين، وما قال: للمسلمين... إنما قال: "**وَقُولُوا لِلنَّاسِ**" لأنها هوية، فالإناء ينضح بما فيه، وطالما أن فيك قلبًا فيه الرحمة وفيه الشفقة وفيه الأنوار فلن يخرج منك إلاَّ ما يتناسب مع قلبك الشريف هذا.

٣- { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا } فلابدَّ من مدعِّماتٍ لعبوديتك، أما السجود فإنه الغيبة عما سوى الله، وأما القيام فإنه رمز الثبات على الأمر.

٤- { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } وهذا يعني اعتبار المؤمن للآخرة، فلئن كانت روحُك متعلقة بالله فلابد من هذا الاعتبار، لأن الله سبحانه وتعالى خوَّفك فينبغي لك أن تخاف.

وهكذا يتميز أصحاب الصحو من أصحاب السُّكْر باصطلاحات أهل الأذواق، فالراسخون في العلم يفهمون أن الله سبحانه وتعالى لما رجّانا بشيء فينبغي علينا أن نرجوه بقلوبنا، ولما خوَّفنا من شيء فعلينا أن نخافه بقلوبنا، ولا تَعارُض بين محبة الأرواح لله سبحانه وخوف القلوب ورجائها، ألم تقرؤوا قوله سبحانه: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب: ٢١]؟

٥- ثم انتقل إلى الوصف الخامس فقال: { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا }

إنها الحركة المالية التي نعيش اليوم بين إفراطها وتفريطها، فالإنفاق كما يقول أهل الاقتصاد نوعان: إنفاق استهلاكيّ، وإنفاق استثماريّ.

فكلمة الإنفاق تعني حركة المال، وحركة المال بحسب توجيه ربِّنا ينبغي أن تكون حركةً تعتمد الوسطية، وتبتعد عن الإفراط وعن التفريط، ويكون فيها التوظيف، ويكون فيها وضع المال في محلّه.

وكم تُهدر لقيماتٌ تُشبِع آلاف الفقراء؟!

وكم يُهدَر مما يُلبَس! وكم يهدر من المتاع!

أين الذين يضبطون الحركة المالية؟

أين الذين يوجهون الناس، ثم يتبعون ذلك التوجيه بتنظيمٍ لتلك الحركة المالية؟

هكذا هم عباد الرحمن.

(إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِطْ عَنْهَا الأَذَى وَلْيَأْكُلْهَا وَلا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ)، وقد قدّم أحد علماء الاقتصاد دراسةً في هذا الحديث وقال: إذا كانت الأمة الإسلامية مليارًا ونصف، فإن الكمية الطعامية الضائعة تساوي (مليار ونصف) لقمة.

وكم من موائدنا والموائد في المطاعم التي يؤكل منها ثم يلقى ما بقي في سلة المهملات!

ما هكذا تكون أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الأمة المعتدلة التي تعلَم أن الله تبارك وتعالى سائِلها عن المال: من أين اكتسبته وفيمَ أنفقته.

٦- { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } وهكذا تلاحظون الرجوع إلى المقدمات، فَسِرُّ السلوك الحسن سلامة العقيدة، والتوجهُ إلى الله وحده، **"حُسْنُ الأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الأَحْوَالِ"**.

٧- { وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا } وهكذا عنوانُ المسلم التنـــزُّه عن إيذاء الناس في دمائهم أو أعراضهم، فالمسلم يصدِّر الرحمة، واليومَ تُستباح الدماء وتستباح الأعراض، وتنتشر ظاهرة تكفير المسلم للمسلم، ولا يعبأ كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام بالدماء، ويكثر الهرج كما أخبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، والهرجُ القتل.

- { إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } ولاحظوا المناسبة، لأنه حين آذى الناس ووقع في دمائهم أو أعراضهم احتاج إلى توبة نصوح وإيمان صادق وعمل صالح، وما نجد هذه الشروط في مواضع أخرى، لأن إيذاء الناس جريمة كبيرة، فما بينك وبين الله قد يسامحك الله تعالى فيه، أما حقوق العباد فإنها شديدة وعظيمة عند الله.

ولا تقبل التوبة حتى يردَّ الحقوق لأهلها، فلا يمكن لمن يؤذي الناس في دمائهم أو أعراضهم أو أموالهم أن تقبل توبته حتى يرد الحقّ لأهله، فما بينك وبين الله يسامحك الله تعالى فيه، أما المظالم فلابدّ من ردّها إلى أهلها حتى لو كانت من باب الغِيبة، وحتى لو كانت من باب النميمة، وحتى لو كانت من باب الوقوع الكلاميّ في الأعراض.

- { وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا } وهو التأكيد الشديد على معنى التوبة.

٨- { وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ } فلا يقلبون الحقّ باطلاً ولا الباطل حقًّا.

إنها معاملات المسلم النقية الواضحة التي لا يعتريها غشٌّ ولا ضبابية ولا تـــزوير، والمسلمون عند شروطهم، فشهادة الزور من الكبائر، وعندما كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يكرر الكبائر ويعددها كان متكئًا، ولما وصل إلى شهادة الزور غيّر صلى الله عليه وسلم من جلسته فاستوى قاعدًا وقال: **(ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور).**

ونحن مقبلون على شهرٍ عظيم، على شهر رمضان، فلا تفرحوا بكثرة الصلاة وتلاوةِ القرآن فيه إذا لم تصححوا معاملاتكم أيها الناس.

شهر رمضان شهرٌ يرفع المؤمن، شهرٌ تسبح الأرواح فيه في الملكوت، شهرٌ تصفو القلوب فيه... لكن الذين يكونون متعلقين بمعاملات ملطخة ومنجّسة وملوثة، فلابد من تصحيح المعاملة قبل أن يكثروا من الصلاة وتلاوة القرآن.

أقلع عن معاملة الربا.. أقلع عن كل أنواع الغش.. أقلع عن كل ميل وانحراف في المعاملات.. وبعد ذلك صلّ ما بدا لك.

٩- { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } وهو أمرٌ يختصر الترفع عن العبثية، لأنه واضح في مقصوده، فكل ما كان من قبيل الفضول لا يعنيه.

والذي يكون مسرعًا لإسعاف مريض أو مجروح، هل يلتفت للاعبٍ أو لاهثٍ يلهث خلف متعة تافهة؟

وهكذا أنت مسرع إلى الآخرة في رحلة الإسعاف فلا تلتفت.. أنت صاحب المقصود الواضح، أسرع إلى ربِّك، **"ركضًا إلى الله بغير زادٍ".**

ترى حامل الجريح يسرع إلى المستشفى من غير التفات، ولا تدرك أن رحلتك إلى الآخرة هي رحلة إسعافية؟ إذًا: كم نحن عن مقاصدنا غافلون؟

{ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } فالمقصود واضح والمؤمن يتنـــزه عن العبثية.

١٠- { وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا } تسمع مذكِّرًا يذكرك بآية من القرآن ولا تكون خيرًا من الجبل؟

{ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } [الحشر: ٢١] أفتسمع آية القرآن ولا تكون خاشعًا؟ من أنت أيها الإنسان إذًا؟

وكان سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه - وتعرفون ما شخصية عمر، وتعرفون قوته وحدّته وشدته - كان إذا قيل له: قال الله، كأنه يتلاشى ويختفي وتـــزول شخصية عمر.

إنه يسمع: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فالله هو المتكلم.

وهذه هي وظيفة المؤمن مع أخيه: يذكِّره، ولا يكون كالذي وصفه الله: { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ } [البقرة: ٢٠٦] وذلك حين لا يرعوي وهو يسمع آيات القرآن التي تهتز لها الجبال وتخشع وتتصدع.

١١- { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ } وهو يشير إلى واقعية المسلم الاجتماعية البعيدة عن الرهبانية المنعزلة عن الناس، فالمؤمن آلف مألوف، وهو كائن اجتماعيّ لا يفهم معنى الصلة بالله أنها الانقطاع عن الناس.

لا، إنه زوج في أسرة، وأبٌ، وأخ، وابن، وأخت، وزوجة... وهكذا يكون الإنسان واعيًا لمكانه الاجتماعيّ، فلا يتنافى تعلق روحه بالله مع حركة بدنه ونفسه في المجتمع كما أمر الله سبحانه وتعالى، فهي واقعية الإسلام وواقعية المسلم التي يكون فيها جامعًا بين الروحانية الموصولة بالله سبحانه والواقعية التي يعيش فيها دقائق مجتمعه، فهكذا تكون صورة المسلم.

١٢- { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } وهي تشير إلى التسابق في ترك الفواحش، فهاهنا الإمامةُ إمامةُ سبق لا إمامة فخر، فهم يتسابقون أيُّهم يكون أشدَّ تركًا للمحظورات، وأبعد عن المنكرات.

فمعنى { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } أي: اجعلنا سابقين في ترك المخالفات الشرعية، حتى لو وقع الناس في المحظورات.

وكم يتعلل بعض الناس بقوله: (الناس يفعلون هذا)، فستحاسب أنت، ولن يكون مخلِّصًا لك من الحساب أن الناس خالفوا أمر الله فخالفتَ موافَقةً لهم.

{ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } إنها صورة يترك فيها الإنسان المؤمن المسلم الالتفات إلى الخطَّائين، فقد سبق المتقين، فكيف يلتفت إلى أصحاب الذنوب ويتأثر بهم؟

ومهما كثرت بين الناس المستحدثات والانحرافات لا تلتفت، وكن صاحب المبادرة، فهويتك واضحة.

لقد شكا إليَّ بعض الناس قضية المسلسلات التي تُدبلَج وتدخل إلى البيوت، وقلت لهم: أعجب من حالكم، أليست هذه القنوات بأيديكم؟ ألا تقدرون على إلغائها؟

وما أضعف أمة يستطيع العدوُّ أن يدخل إليها في عُقر دارها وهي مستسلمة!

أيُّ أمة هذه؟

من هو صاحب المبادرة والقرار في بيتك؟ ومن هو المسؤول أمام الله عن كل فرد في الأسرة؟

(كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ... وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا).

فالله سيسألنا عن أولادنا، وعن كلِّ حركة في بيوتاتنا، فإذا كنتم لا تستطيعون إقامة دولة الإسلام في أُسَرِكم وبيوتكم فكيف تـــزعمون أنكم تقيمون دولة الإسلام في المجتمع؟

إنكم مهزومون حين لا تستطيعون أن تكونوا أصحاب قرار داخل أسرتكم.

أصبحنا نُهزم حتى أمام نفوسنا، وحين نُهزم أمام نفوسنا ثم نُهزم أمام أُسَرِنا، سنهزم أمام مجتمعنا، وأمام أمتنا.

من الذي يضبط سلوكنا ومن الذي يوجهه؟

سيأتي شهر رمضان وسيأتي سيلٌ إعلاميٌّ قذر من أجل تغير أخلاق المسلمين، ومن أجل تغيير ثقافة أطفالنا ونسائنا وشبابنا، ونحن أمة ضعيفة لا تملك الوسائل، فالأغنياء يتسابقون من أجل تـــزيين المساجد وشراء اللوحات الفاخرة، لكن أين الأموال التي تصرف لمشروع تغيير ثقافة الشباب من جديد نحو الإسلام؟

نحن أمة مهزومة حتى في تفكيرها، وحتى في تخطيطها، فيخطط غيرُنا ونحن انفعال له، والأموال تصرف من أجل لقمة يأكلها جائع في الوقت الذي تضيع فيه آلاف الأطنان من الطعام.

إنها حالة الفوضى...

الطعام ليس مشكلة.

واللهِ، موائدُ الأغنياء وما يُترك من طعامهم ويرمى في الفضلات يكفي لإطعام الجياع، ثم تنصرف الأموال بعد ذلك لمشروع، لكن أين العقول؟ أين التخطيط؟ أين التدبير؟ أين الوعي؟

نُهزم أمام نفوسنا كما قلت، ونُهزم أمام أُسَرنا، ونُهزم أمام مشروعات حضارتنا، وبعد ذلك نقول: يأتينا سيل إعلامي، إذًا: ماذا تفعلون أنتم؟

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.